عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب

د/ عبدالحليم بوهلال

أستاذ فلسفة العلوم والمنطق الرياضي

جامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة:

إن الاهتمام بالطب لم يكن وليد اليوم، ولا خاصية للحضارة الغربية المعاصرة، بل ظهر مع الإنسان، منذ أن ترجل على ظهر هذه البسيطة، فالحفاظ على صحته، وتخفيف الآلام وإزالة الأمراض عنه، استوجبت ميلاد هذا النوع من المعرفة والصنعة، فكان أن ظهر الأطباء عبر التاريخ، فلم تخلُ حضارة منهم، ولم تعدم إسهاماتهم في هذا المجال العلمي الحيوي، ففي بابل عُني بالطب البشري والبيطري، وفي مصر ازدهر التشريح والفسلجة، ومع الحضارة الإغريقية عمل **أبوقراط** على تحرير الطب من السحر والشعوذة، فأسس للعلمية في الطب. أما في الحضارة الإسلامية فقد برز **الرازي** و**عبداللطيف البغدادي** و**ابن النفيس** وغيرهم، بإسهاماتهم الطبية المبتكرة، وتطبيق المنهج العلمي الصارم، إذ نجح الأول في تطبيق علم البيئة في الطب، وبرع الثاني في علم العظام، واكتشف الثالث الدورة الدموية [1]، لتتسلم أوربا هذا التراث الطبي فتبدع فيه.

لكن ورغم ما توصل إليه الطب من تقدم، خاصة في نهاية القرن العشرين وبداية هذا القرن، إلا أنه لا يزال موضع نقاش بين الأطباء أنفسهم، وفلاسفة العلم، حول مفاهيمه، وطرائقه في التشخيص والعلاج، وحول علاقته بالفلسفة والأخلاق، وحول مسألة اليقين الطبي، فما هو الطب؟ وما هي فلسفته؟ وهل تحقق اليقين في الطب؟

العرض:

يتناول علم الطب كموضوع له تشخيص المرض ثم العمل على إيجاد الدواء المناسب له، فالطب يحوز على خصائص العلم، من حيث هو نظري وتطبيقي في نفس الوقت. فلأنه يسعى جاهدا من أجل فهم الإنسان سواء كان سويا أم مريضا، بغية وقايته من المرض ابتداء، ومحاولة شفاء من وقع فيه، ذلك أن الصحة، والتي تعرفها منظمة الصحة العالمية على أنها حالة من الرفاه الكامل الطبيعي العقلي والاجتماعي، وأن الصحة صفة ظاهرية تماثل أي صفة ظاهرية أخرى تتضمن التعامل مع الطراز الجيني والبيئة[2]، يبقى الحفاظ عليها من أولويات الطب. معتمدا في ذلك على ما تمده له العلوم الأخرى من مساعدة، كالفيزياء والكيمياء الحيوية وعلم التشريح وعلم الأحياء، فهو نظري. ولأن الطبيب فيه يستعمل التقنيات المختلفة والمتعلقة بالتشخيص والعلاج، فهو تطبيقي[3].

---

[1] محمد سليم صالح وعبد الرحيم عشير، **علم حياة الإنسان**، دار المعارف، ط2، القاهرة،1986، ص 16-17.

[2] المرجع السابق، ص539.

[3] أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**، دار النهضة العربية، ب ط، بيروت، 1993،ص121.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

ويسلك الطبيب أثناء تشخيص المرض عدة مناهج، إذ يستخدم منهج الاستقراء عندما يلاحظ مريضه فيفحصه، فيفترض علته، معتمدا في ذلك على خبرته ومهارته، فيخلص في الأخير إلى تحديد العلاج المناسب. كما يكون قد استعان بمنهج الاستبطان، فيسأل المريض عن ألمه ومكانه من جسده، وأوقاته، ولأنه قد لا يوفق في عمليتي التشخيص والعلاج، فتجده مضطرا إلى استعمال طريقة المحاولة والخطإ، فيعمل على كشف أسباب الخطإ فيتجلى أمام ناظريه الصواب.

أما فلسفة الطب، فتهتم أساسا بتحديد المفاهيم المتداولة في عالم الطبيب والمريض، كالصحة والمرض وغيرهما. وذلك من أجل فهم معانيها بدقة. كما تهتم بما يسمى بالأخلاق الطبية، حيث تعمل على تحليل ما يكونه الطبيب من أفكار حول مريضه، باحثة عن العلاقة المثلى التي ينبغي أن تسود بينهما، كما تتناول بالنقد كل ما قد ينجم من مشاكل أخلاقية عن استخدام تقنيات التكنولوجيا المبتكرة، ومثال ذلك ما نتج عن تطبيق الهندسة الوراثية والإخصاب الصناعي وأطفال الأنابيب[4]، وأخيرا تنظر في المكانة التي ينبغي أن ينالها المريض، إذ يجب أن تبقي على إنسانيته، فتحفظ له كرامته، لذلك تجدها تناقش ما ترتب عن ذلك من مشكلات مثل ما يسمى بالموت الرحيم. كما تقوم بفحص ما توصل إليه الطب من نتائج، بغية إصدار الحكم المناسب حول مدى موضوعيتها ويقينيتها .

إن مشكلة اليقين في الطب، تعتبر من أهم المسائل التي توقف فيلسوف الطب عندها فاحصا ومناقشا، كون القضية تتعلق بمصير الإنسان، فحياة المريض مرتبطة بمدى نجاح التشخيص وملاءمة العلاج، إذ يلقي المريض نفسه بين يدي الطبيب مستسلما، واثقا، لا يناقش، مطبقا كل الأوامر، فتصبح مسؤولية الطبيب حينئذ أعظم.

إن تأمل الطب علما وممارسة، ثم فحص الوضعية النفسية والاجتماعية للطبيب والمريض في ظل التطور الهائل الذي لحق بهذا العلم وبالمجتمع ككل، يجعلنا لا نتردد في الحديث حول غياب اليقين في الطب، بل أن نقر بهذه الحقيقة، إذا ما أردنا أن نتجنب بعض آثار هذه المشكلة، فنبحث وبشكل دائم عن التصحيح، يقول **رينيه فوكس(F. René)** عنها: "**وهي مسائل ذات طبيعة موقفية وفلسفية، مثلما هي ذات طبيعة معرفية وعملية. ولعل من أهم تلك المسائل، كما يشهد بذلك أجيال من طلبة الطب، هي تعلم الإقرار بالحضور الدائم للشعور بعدم التيقن في مجال الطب**"[5].

وما يثبت عدم التيقن الطبي، هو قصور الأسس المعتمدة في التشخيص والعلاج، إذ نجد أنفسنا أمام نظريتين في الطب، الأولى، وتسمى بالنظرية الآلية أو الميكانيكية، يقول عنها **كينو**(L. Kuénot)*: "**إن هذه النظرية الآلية هي في جوهرها مناهضة للغائية، وباطنها الميتافيزيقي، هو (الواحدية الهايكلية) التي هي فلسفة مادية للوحدة،**

---

[4] المرجع السابق،ص123.

[5] رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**، ترجمة: عاطف أحمد، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت العدد102،أكتوبر 2000، ص150.

* ل كينو(1886-1951)، عالم بيولوجي فرنسي.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

وترى أن الانسان الذي هو قسم من الأشياء المتطورة يستطيع بعقله أن يفهم العالم فهما شاملا"[6]، حيث تعتقد أن الإنسان مجرد جسم، يتألف من أعضاء وأنسجة وشرايين، وأن لكل عضو وظيفة محددة، ومستقلة عن باقي وظائف الأعضاء المتبقية، لذلك على المعالج أن يهتم فقط بالعضو المريض. إذ بمقدوره معرفة الكيفية التي يعمل بها العضو، مما يجعل أمر تفسيره أمرا ممكنا، على أساس أن الظواهر الحية تخضع لمبدإ الحتمية، وهو نفس المبدإ الذي تخضع له الظواهر الجامدة، يقول **كلود برنارد**(Claude Bernard)** : "**إلا أنه يجب أن تكون هناك حتمية في الظواهر الحيوية تتحكم فيها، وإلا كانت قوة عمياء لا قانون لها وهذا أمر غير ممكن. ومن هنا ينتج أن ظواهر الحياة ليس لها قوانينها الخاصة بها**"[7].

إن الطبيب، ووفقا لهذه النظرية، لا يبالي بشعور المريض أثناء العلاج، إذ لا يهتم بالآلام التي قد يحس بها، حيث يغفل تماما أنه أمام إنسان يحس ويشعر، وكل ما يهمه فقط هو وصف الدواء أو إجراء العملية الجراحية، إنه يستبعد تماما ذاتية المريض أثناء عمله التشخيصي والعلاجي[8].

واضح أن النظرية الآلية لا يمكن لها أن تصمد أمام النقد الإبستمولوجي، فهي تتناقض وطبيعة الإنسان عندما اعتبرته مجرد آلة جامدة ميتة، في حين أنه يتمتع بالحياة والشعور، ثم إنها أهملت ظروف الجسم ككل، فقد يُحدث الدواء أعراضا مضرة بوظائف الأعضاء الأخرى، كما أن الحالة المرضية قد تكون متعلقة بحالات المريض النفسية، وظروفه الاجتماعية. مما يجعل إهمال هذه الحقيقة من طرف الطبيب يبعده عن معرفة علة المرض، يقول **ماكس بيروتز (Max Perutz)*** : "**ولقد حولت خطوات التقدم الواسعة، التي تحققت في السنوات الخمسين الأخيرة الماضية، تعليم الطب نحو التأكيد على الأساليب العلمية للتشخيص والمعالجة. وفي بعض الأحيان نحو إهمال العلاقة الشخصية بين الطبيب والمريض التي كانت موجودة من قبل، فكانت النتيجة أن الأطباء يمكن أن يشخصوا المرض، ولكنهم يفشلون في اكتشاف السبب الذي لا يمكن أن تكشف عنه سوى معرفة المريض الشخصية**"[9]، ثم إن تخفيف الآلام عن المرضى هو من أولويات الطبيب، وهذا ما يسعى إليه بالفعل الطب، إذ نجد أثناء العمليات الجراحية يخضع المريض لعمليات التخدير الجزئية أو الكلية، من أجل أن يتجنب الشعور بالألم .

---

[6] L. Kuénot : **Invention et Finalité en Biologie**, Flammarion, Paris ,1941 .P.41

** كلود برنارد، طبيبي فرنسي، من أنصار التفسير الحتمي في البيولوجيا، يعتبر أول من أدخل المنهج التجريبي في الطب.

[7] Claude Bernard : **Introduction à L'étude de La médecine Expérimentale**, Garnier-Flammarion, Paris,1966,P109

[8] أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**،(مرجع سابق)، ص132.

*** ماكس بيروتز، ولد عام1975، عالم كيمياء ألماني، اكتشف بنية ووظيفة خضاب الدم(الهيموغلوبين)،فتحصل نتيجة ذلك على جائزة نوبل عام 1962.

[9] ماكس بيروتز، **ضرورة العلم**، ترجمة وائل أتاسي وبسام معصراني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة العدد 245، الكويت، 1999. ص89.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

أما الثانية، وتسمى بالنظرية التكاملية، فيتزعمها الطبيب الفيلسوف **ليـدرمان** (E.K. Ledermann)، لا تعتـبر الإنسان مجرد آلة معقدة، كما ترفض أن تكون وظائف أعضاء جسمه مستقلة عن بعضـها الـبعض، بـل إن الجسـم يعمل في تناسق وانسجام، ذلك أن أعضاءه مرتبطة ارتباطا غائيا، من أجل تحقيق غاية واحدة هي استمرار الحيـاة، فالتنفس مثلا تحكمه منبهات كيماوية بفعل كميات من الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون، كما تـتحكم في ظـاهرة التنفس منبهات عصبية تنشأ عن المنبه التائه، الذي ينظم عمق التنفس، وهذه المنبهات متكاملة ومرتبطة داخليا، كما أن التنفس يتأثر بالحالات النفسية للإنسان[10]، وتدعو هذه النظرية إلى تخفيف الآلام عن المريض، إنها تتنـاول جسم المريض الحي ككل بالدراسة، على أساس أن الوظائف الحيوية تعمـل مـع بعـض، مـما يجعـل الطبيـب أثنـاء التشخيص لا يهتم بالعضو المريض فقط، بل ينظر إلى الجسم ككل، واضعا في اعتباره أن الواقعة النفسية كـما تـؤثر في الواقعة الجسمية، فإنها تتأثر بهذه الأخيرة أيضا.

إن هذه النظرية، وإن تجاوزت نقائص الأولى، إلا أنها تبقـى قـاصرة، كونهـا لا تهـتم بمحيطـه الاجتماعـي، مـما يجعل تحقيق اليقين المطلوب في الطب معلقا، لـذلك لا بـد مـن نظريـة ثالثـة، تضـع في اعتبارهـا ظـروف المـريض المحيطة به، على أساس أن الجوانب العضوية والنفسية والاجتماعية متفاعلة فيما بينها، والإحاطة بها تعين الطبيب عـلى النجـاح في عملـه. فتخفـف الآلام التـي يشـعر بهـا المـريض، أو تزيلهـا، يقـول **ألكسـيس كاريـل**[****]: "**ففـي الفسيولوجيا، والصحة، والطب كما في دراسـة التعلـيم والاقتصـاد السـياسي والاجتماعـي انهمـك العلـماء انهماكـا شديدا في النواحي العضوية والأخلاط والجانـب العقـلي للإنسـان، ولكـنهم لم يقفـوا أي قـدر كبـير مـن الاهـتمام لتكوينه العقلي المؤثر، وحياته الداخلية، وأخلاقه، ومطالبه الدينية، والعلاقات الوثيقة العامة بـين وجـوه النشـاط العضوي والفسيولوجي، والعلاقات الوثيقة بين الفرد وبيئته العقلية والروحية، فلا مناص إذن مـن إحـداث تغيـير أساسي**"[11].

هذا وقد تنبهت أغلب المدارس الطبية في الولايات الأمريكية المتحـدة لـذلك، فأصـبحت تعتمـد عـلى المبحـث البيئي والمسمى بالأخلاق الحيوية (Bioéthiques)، بغية إيجاد تكامل بين الطب والعلوم الاجتماعية[12]، وقد ظهر مصطلح الأخلاق الحيوية مع نهاية الستينات من القرن العشرين، نتيجـة مشـاكل نجمـت عـن التطـورات العلميـة والتكنولوجية، كالإجهاض والعلاج الجيني وإحلال الأعضاء أي زرع الأعضاء والأعضاء الاصطناعية والموت الرحيم[13]، لذلك فإن القادرين على فهم المريض، هم فقط أولئك الذين يعرفونه كأجزاء ووحدة من جميع جوانبه التشريحيـة والفسيولوجية والعقلية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية.

---

[10] أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**،(مرجع سابق)، ص135.

[****] ألكسيس كاريل (1873-1944)،طبيب جراح فرنسي، نال جائزة نوبل عام 1912، من أشهر كتبه: " الإنسان ذلك المجهول"

[11] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة: شفيق أسعد جميل، مكتبة المعارف، ط3، بيروت، 1980، ص ص 57-58.

[12] رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**،(مرجع سابق)، ص140.

[13] المرجع السابق، ص144.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

ومن أسباب عدم التيقن الطبي، جهلنا التام بطبيعة الحياة، فالطب المعاصر يثبت أننا نكاد لا نعرف شيئا عن ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والأعضاء ووجوه النشاط العقلي الروحي، فنحن نجهل الأسباب التي تحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض[14]، وهذا ما يجعل مشكلة المرض ما زالت بعيدة عن الحل، على الرغم من كل هذه الانتصارات الطبية الباهرة التي نشاهدها اليوم، يقول **ألكسيس كاريل:** "**وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محددة في دنيانا ما زالت غير معروفة**".[15] فرغم تطور علمي الطب والأحياء، إلا أننا لا نزال عاجزين عن الإحاطة بحقيقة جسم الإنسان الحي، مما يجعل كل اكتشاف جديد لطريق علاج أو دواء، أمرا معرضا للتفنيد، ما دام سر حركة الجسم ليس في متناول فهمنا، فالحياة تتجاوز حدود المكان والزمان، فلا يبقى أمامنا إلا أن نعمل بنصيحة **نيلز بور******* **(N.Bohr)** التي تنص على: "**وفي هذه الحالة فإن وجود الحياة يجب أن يعتبر حادثا أوليا لا سبيل إلى تفسيره. أي يؤخذ كنقطة انطلاق في البيولوجيا، تماما مثل ما أن كوانتوم العمل الذي يظهر كعنصر لا معقول في الميكانيكا الكلاسيكية**"[16] .

ثم إن علم الطب، وفي غياب معرفة كاملة بحقيقة هذا الكائن الحي، يصبح سيره مترددا، إذ تجده دائما يراجع خطواته، فإن تقدم خطوة تراجع خطوات إلى الوراء، فتنقص الموضوعية فيه، ولا يبقى إلا الاعتماد على موهبة المعالج، وخير دليل على ذلك بقاء الكثير من الأمراض مجهولة العلل، واكتشاف بعض العلاجات في ظروف غير ملائمة، توقفت على التكوين النفسي والعقلي والعلمي للطبيب، ومثال ذالك ما حدث مع **باستور** واكتشافه، يقول **ألكسيس كاريل:** "**ومن الواضح أن العلم لا يتبع أية خطة علمية، وإنما يتطور اعتباطا، ويتوقف تقدمه على الظروف العرضية، كولادة رجال يتمتعون بالنبوغ، وتكوين عقولهم والاتجاه الذي يتخذه حب استطلاعهم**".[17]

وما يجعل بلوغ اليقين في الطب بعيد المنال أيضا، هو فكرة التخصص، ذلك أن وظائف أعضاء الجسم تعمل في انسجام وتكامل، بل إن بقاء الإنسان حيا متوقف على هذا التفاعل التكاملي، ثم إن هذا الجانب الجسمي من شخصيته، مرتبط بشكل وثيق بجوانبه الأخرى، كالنفسية والاجتماعية والميتافيزيقية، فإذا ما تخصص طبيب في وظيفة عضو ما، وغابت عنه حقيقة باقي الأعضاء، كان تشخصيه، ثم علاجه، ناقصا، ويزداد هذا القصور بإهمال آثار الجوانب النفسية والاجتماعية والميتافيزيقية على المريض، فالطب يشكل حلقة متكاملة لا يجوز تجزئتها[18]،

---

[14] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**،(مرجع سابق)، ص18.

[15] المرجع السابق، ص17.

***** نيلز بور(1885-1962)، فيزيائي دنماركي، نال جائزة نوبل سنة1922، وضع أنموذجا للذرة وطور نظرية الكم، من مؤلفاته:" الفيزياء الذرية والمعرفة البشرية".

[16] F.Jacob : **La logique Du vivant** , Gallimard, Paris.1970,P.265.

[17] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**،(مرجع سابق)، ص37.

[18] مجموعة من المؤلفين،**الموسوعة الطبية الميسرة (ميراك- التشخيص والمعالجة)** ج1، ترجمة حسان أحمد قمحية، تقديم مفيد جوخدار، المركز التقني المعاصر- دهر ابن النفيس،ط1، دمشق،1995، المقدمة.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

مثله كمثل الكون الذي هو حلقة متصلة أيضا، لا يقف على حقيقته إلا من أحاط بجميع أجزاء هذه الحلقة، يقول **ألكسيس كاريل: "وكذلك فإن الإفراط في تخصص الأطباء يسبب ضررا أكثر، ذلك لأن الطب قد قسم الإنسان المريض إلى أجزاء صغيرة لكل جزء منها أخصائي. فحينما يبدأ أحد الأطباء حياته العملية بالتخصص في دراسة عضو صغير في الجسم، فإن معلوماته عن بقية أجزاء الجسم تصبح أولية حتى يصبح عاجزا عن فهم هذه الأجزاء بما فيها العضو الذي تخصص فيه".**[19]

ثم إن محاولة فهم الإنسان من خلال تشريح جثته وهو ميت، لن تملك معرفته الناجمة عن هذا الفعل أي قيمة يقينية، ومرد ذلك الاختلاف الكبير الحاصل بين تركيبة ووظيفة الجسم الحي، ومكونات الجسم الميت الذي فقد الوظيفة بفقدان الحياة، والذي لن يلبث أن ينحل، فهذه المحاولة قد تضلل أكثر مما تنير الطريق،يقول **ألكسيس كاريل: "ليس في استطاعة الإنسان أن يفهم الكائن الحي بدراسة جسم ميت لأن أنسجة الجثة الهامدة تكون قد جردت من الدم الذي يدور فيها كذا من وظائفها. وحقيقة الأمر أن العضو الذي يفصل من وسيطه المغذي يعتبر لا وجود له على الإطلاق".**[20]

ومن جهة أخرى، فإن انحراف البحث الطبي عن مساره، وربط هذا المجال الحيوي بالتجارة، تحت ضغط شيوع الفكر المادي، تحول بموجبه كثير من الأطباء إلى تجار، همهم الأول جمع المال على حساب صحة المريض، فلم يعد التشخيص الجيد والعلاج الناجح هدفا، فأصبح المريض سلعة، تخضع إلى قوانين السوق، فترتبت عن ذلك مشاكل صحية وأخلاقية واجتماعية جمة، فكثرت الأخطاء الطبية، وظهرت عيادات الإجهاض، وانتشر بيع الأعضاء، فلم يعد هناك حديث عن مدى اليقين في التشخيص أو العلاج، يقول **رينيه فوكس: "حيث إن التغيرات في العلوم الطبية، والتكنولوجيا والممارسة وما أحاط بها من أحوال اجتماعية وثقافية، ساهمت كلها في ظهور تجليات جديدة لعدم التيقن الطبي، كما أدت من بعض الجوانب إلى زيادة أو تعقيد أنماط قديمة من عدم التيقن".**[21]

وتعتبر الثورة البيولوجية وما نجم عنها من أسباب عدم التيقن الطبي، فرغم اكتشاف البنية ثنائية الحلزون ذاتية الاكتمال لل A.D.N أو ما يسمى بالحامض الريبي المنقوص الأوكسجين، ثم ظهور البيولوجيا الخلوية والجزيئية الجديدة، إلا أن هذه التطورات لا تكشف لا زمان ولا مدى تقدم الطب، بل لا يوجد ما يؤكد أن ذلك سيحدث فعلا، خاصة وأن أمراضا معدية قديمة بدأت في الظهور من جديد، يقول **رينيه فوكس: "فاختبارات الوراثة الجزيئية ما زالت في طفولتها، ولم تثبت أي من محاولات العلاج بالهندسة الوراثية نجاحها بعد، وثمة هوة غير قابلة للعبور قائمة بين المعارف الجزيئية والوراثية التي تحققت، وبين المستوى الطائفي والباثوفسيولوجي (علم اختلال وظائف الأعضاء) الذي يتعامل معه الطب الإكلينيكي. كذلك فإن ظهور أمراض معدية معينة وعودة**

---

[19] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**،(مرجع سابق)، ص61.

[20] المرجع السابق، ص87.

[21] رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**،(مرجع سابق)، ص150.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

أقدمها وهي العملية التي أصبحت لافتة منذ ظهور وانتشار مرض الإيدز، شكل مصدرا رئيسا آخر لعدم التيقن الطبي من الطرازين القديم والجديد معا".[22]

ثم إنه كلما زادت دقة وسائل التشخيص والعلاج، أصبحت أكثر خطورة،إذ ترتب عنها آثار جانبية خطيرة جدا، لم يتوقعها الأطباء، كما لم يتمكنوا من تجنبها، غدا مصدرا آخر من مصادر عدم التيقن الطبي[23].

هذا بالإضافة إلى أن هناك من يشكك في التقارير الطبية التي ترد معلنة عن أدلة تزعم أن الطب المعاصر في أزهى أوقاته، كونها لم تتساءل حول مصداقية هذه التقارير، ومن هو الذي يملك فعلا الحق في الحكم على أدلتها بأنها كافية، وما هي أفضل السبل لفهم ووصف الحكم الإكلينيكي السليم، ولعل الجدل الأخير الذي وقع حول مرض أنفلونزا الخنازير وعلاجه خير دليل على ذلك، يقول **رينيه فوكس**: **"والطب المبني على الأدلة وما يدور حاليا من جدال حول قيمته وحدوده إنما يشير إلى حالة عدم التيقن المعرفي التي تسود أجواء الطب المعاصر".**[24]

ثم إن الهندسة الوراثية التي تهتم بدراسة التركيب الوراثي للكائنات الحية بغية الوقوف على القوانين التي تتحكم في الصفات الوراثية، وذلك من أجل تعديلها أو إصلاح عيوبها، وهذا ما يسمى بالجينوم البشري[25]،لا تزال في مهدها، تجهل ماهية الكائن الحي، ومتعثرة في تقدم بحثها، فإن وصلت إلى بعض النتائج القليلة جدا، فإنها تكون قد أهدرت الكثير من حياة بعض الكائنات موضع التجربة، والأكثر من الوقت والمال، بل وأفرزت صراعا مع الدين والأخلاق، مما يجعل هذه الهندسة بعيدة عن اليقين، جعلت **ماري ويكسلر**، وهي واحدة من علمائها تقر قائلة: **"وعلى الرغم من أنني أحس بأن هذه الفجوة، التي لا نملك إزاءها سوى التنبؤ لا الوقاية، ستكون في غاية الصعوبة - إذ سترهق نظما طبية واجتماعية واقتصادية تقع بالفعل تحت ضغط خطير من قبل أن يظهر مشروع الجينوم البشري-"**[26].

وما يثبت عدم التيقن الطبي هو أنه، ورغم تطور الطب إلا أنه لم يجد أدوية نوعية لمعظم الفيروسات[27]،

وإن وجد لقحات نوعية لبعضها فقط. وها هي الموسوعة الطبية الميسرة تقر بذلك: **"غالبا ما تستخدم العوامل المضادة للجراثيم من دون استطباب حقيقي مشروع Valid Indication (كما هي الحال في الأمراض الحموية)،**

---

[22] المرجع السابق، ص ص 150-151.

[23] المرجع السابق، ص 151.

[24] المرجع السابق، نفس الموضع.

[25] فتيحة زرداوي، **وقع تطور العلوم الطبية على الأخلاق**، ضمن كتاب: **الفلسفة وقضايا العصر**، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، ط1، الجزائر، 2008.ص 187.

[26] ماري ويكسلر، **الاستبصار والحيطة: ترجيعات من مشروع الجينوم البشري**، ضمن كتاب: **الشفرة الوراثية للإنسان**، تحرير: دانييل كيفلس وليروي هود، ترجمة: أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة، العدد217، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، يناير 1997،ص266.

[27] محي الدين طالو العلبي، **الإيدز والأمراض الجنسية**، دار الهدى، ط2، عين مليلة، الجزائر، 1989،ص40.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

تُستخدم بشكل غير مناسب، فلا تعطي سوى نتائج سريرية واهية. ومن أكثر هذه الأخطاء معالجة الحمى، التي قد لا تكون بالضرورة ناجمة عن خمج جرثومي".[28]

وتكمن أسباب الخطر في الإصابة بالفيروسات في كونها أكثر الكائنات الحية تعرضا لحدوث الطفرات لبساطتها، مما يجعل تكون أنواع جديدة لها لدى المصاب أمرا قائما، ثم إنها تتميز بسرعة التكاثر لسهولة نسخ A.D.N أو A.R.N المتمم، فيزداد عدد الفيروسات، ثم إنه عند الإصابة بعدة أنواع من الفيروسات، فإنه ينشأ عن ذلك تراكيب وراثية جديدة، فتظهر سلالات فيروسية جديدة، فيزداد الخطر لدى المصاب، كما أن معظم الفيروسات تضعف المناعة وقد تعطلها، مثل فيروسات الإيدز، كما أن بعضها يسرع في الانقسام الخلوي، فتحدث الأورام، مثل فيروسات الثآليل، ثم إنها تستطيع اختراق الحاجز المشيمي لدى الحامل، فيتأثر الجنين سلبا، وهناك آثار أخرى خطيرة للفيروسات[29].

الخاتمة:

نستطيع أن نقول في الأخير، إنه رغم تطور الطب، إلا أنه لا يزال طفلا ينمو متعلما، يسلك طريقة المحاولة والخطإ، وإنه لعمري مسلك خطير، لأنه يحاول في الإنسان، وكل خطإ قد يقتله، لذلك كان لا بد أن يقر الأطباء بهذه الحقيقة، فلا يقين متحقق، مما يستوجب البحث عن مصادر أخرى للمعرفة الطبية، ثم لا بد أن يكون الطبيب فاضلا، فيكون فيلسوفا على حد تعبير **جالينوس**.

[28] مجموعة من المؤلفين،**الموسوعة الطبية الميسرة (ميراك- التشخيص والمعالجة)** ج1، (مرجع سابق)، ص49.

[29] محي الدين طالو العلبي، **الإيدز والأمراض الجنسية**،(مرجع سابق)، ص ص 39-40.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

المصادر والمراجع بالعربية:

1/ أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**، دار النهضة العربية، ب ط، بيروت، 1993.

2/ ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة: شفيق أسعد جميل، مكتبة المعارف، ط3، بيروت، 1980.

3/ رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**، ترجمة: عاطف أحمد، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت العدد102،أكتوبر 2000.

4/ فتيحة زرداوي، **وقع تطور العلوم الطبية على الأخلاق**، ضمن كتاب: **الفلسفة وقضايا العصر**، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، ط1، الجزائر، 2008.

5/ ماري ويكسلر، **الاستبصار والحيطة: ترجيعات من مشروع الجينوم البشري**، ضمن كتاب: **الشفرة الوراثية للإنسان**، تحرير: دانييل كيقلس وليروي هود، ترجمة: أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة، العدد217، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، يناير 1997.

6/ ماكس بيروتز، **ضرورة العلم**، ترجمة وائل أتاسي وبسام معصراني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة العدد 245، الكويت، 1999.

7/ محمد سليم صالح وعبدالرحيم عشير، **علم حياة الانسان**، دار المعارف، ط2، القاهرة،1986.

8/ محي الدين طالو العلبي، **الإيدز والأمراض الجنسية**، دار الهدى، ط2، عين مليلة، الجزائر، 1989.

9/ مجموعة من المؤلفين، **الموسوعة الطبية الميسرة (ميراك- التشخيص والمعالجة)** ج1، ترجمة حسان أحمد قمحية، تقديم مفيد جوخدار، المركز التقني المعاصر- دهر ابن النفيس،ط1، دمشق،1995.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1/ Claude Bernard : **Introduction à L'étude de La médecine Expérimentale**, Garnier-Flammarion, Paris.1966.

2/ F. Jacob **: La logique Du vivant** , Gallimard, Paris.1970.

3/ L. Kuénot : **Invention et Finalité en Biologie**, Flammarion , Paris ,1941 .

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب

د/ عبدالحليم بوهلال
أستاذ فلسفة العلوم والمنطق الرياضي
جامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة:

إن الاهتمام بالطب لم يكن وليد اليوم، ولا خاصية للحضارة الغربية المعاصرة، بل ظهر مع الإنسان، منذ أن ترجل على ظهر هذه البسيطة، فالحفاظ على صحته، وتخفيف الآلام وإزالة الأمراض عنه، استوجبت ميلاد هذا النوع من المعرفة والصنعة، فكان أن ظهر الأطباء عبر التاريخ، فلم تخلُ حضارة منهم، ولم تعدم إسهاماتهم في هذا المجال العلمي الحيوي، ففي بابل عُني بالطب البشري والبيطري، وفي مصر ازدهر التشريح والفسلجة، ومع الحضارة الإغريقية عمل **أبوقراط** على تحرير الطب من السحر والشعوذة، فأسس للعلمية في الطب. أما في الحضارة الإسلامية فقد برز **الرازي** و**عبداللطيف البغدادي** و**ابن النفيس** وغيرهم، بإسهاماتهم الطبية المبتكرة، وتطبيق المنهج العلمي الصارم، إذ نجح الأول في تطبيق علم البيئة في الطب، وبرع الثاني في علم العظام، واكتشف الثالث الدورة الدموية [1]، لتتسلم أوربا هذا التراث الطبي فتبدع فيه.

لكن ورغم ما توصل إليه الطب من تقدم، خاصة في نهاية القرن العشرين وبداية هذا القرن، إلا أنه لا يزال موضع نقاش بين الأطباء أنفسهم، وفلاسفة العلم، حول مفاهيمه، وطرائقه في التشخيص والعلاج، وحول علاقته بالفلسفة والأخلاق، وحول مسألة اليقين الطبي، فما هو الطب؟ وما هي فلسفته؟ وهل تحقق اليقين في الطب؟

العرض:

يتناول علم الطب كموضوع له تشخيص المرض ثم العمل على إيجاد الدواء المناسب له، فالطب يحوز على خصائص العلم، من حيث هو نظري وتطبيقي في نفس الوقت. فلأنه يسعى جاهدا من أجل فهم الإنسان سواء كان سويا أم مريضا، بغية وقايته من المرض ابتداء، ومحاولة شفاء من وقع فيه، ذلك أن الصحة، والتي تعرفها منظمة الصحة العالمية على أنها حالة من الرفاه الكامل الطبيعي العقلي والاجتماعي، وأن الصحة صفة ظاهرية تماثل أي

[1] محمد سليم صالح وعبد الرحيم عشير، **علم حياة الإنسان**، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1986، ص 16- 17.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

صفة ظاهرية أخرى تتضمن التعامل مع الطراز الجيني والبيئة[2]، يبقى الحفاظ عليها من أولويات الطب. معتمدا في ذلك على ما تمده له العلوم الأخرى من مساعدة، كالفيزياء والكيمياء الحيوية وعلم التشريح وعلم الأحياء، فهو نظري. ولأن الطبيب فيه يستعمل التقنيات المختلفة والمتعلقة بالتشخيص والعلاج، فهو تطبيقي[3].

ويسلك الطبيب أثناء تشخيص المرض عدة مناهج، إذ يستخدم منهج الاستقراء عندما يلاحظ مريضه فيفحصه، فيفترض علته، معتمدا في ذلك على خبرته ومهارته، فيخلص في الأخير إلى تحديد العلاج المناسب. كما يكون قد استعان بمنهج الاستبطان، فيسأل المريض عن ألمه ومكانه من جسده، وأوقاته، ولأنه قد لا يوفق في عمليتي التشخيص والعلاج، فتجده مضطرا إلى استعمال طريقة المحاولة والخطإ، فيعمل على كشف أسباب الخطإ فيتجلى أمام ناظريه الصواب.

أما فلسفة الطب، فتهتم أساسا بتحديد المفاهيم المتداولة في عالم الطبيب والمريض، كالصحة والمرض وغيرهما. وذلك من أجل فهم معانيها بدقة. كما تهتم بما يسمى بالأخلاق الطبية، حيث تعمل على تحليل ما يكونه الطبيب من أفكار حول مريضه، باحثة عن العلاقة المثلى التي ينبغي أن تسود بينهما، كما تتناول بالنقد كل ما قد ينجم من مشاكل أخلاقية عن استخدام تقنيات التكنولوجيا المبتكرة، ومثال ذلك ما نتج عن تطبيق الهندسة الوراثية والإخصاب الصناعي وأطفال الأنابيب[4]، وأخيرا تنظر في المكانة التي ينبغي أن ينالها المريض، إذ يجب أن تبقي على إنسانيته، فتحفظ له كرامته، لذلك تجدها تناقش ما ترتب عن ذلك من مشكلات مثل ما يسمى بالموت الرحيم. كما تقوم بفحص ما توصل إليه الطب من نتائج، بغية إصدار الحكم المناسب حول مدى موضوعيتها ويقينيتها .

إن مشكلة اليقين في الطب، تعتبر من أهم المسائل التي توقف فيلسوف الطب عندها فاحصا ومناقشا، كون القضية تتعلق بمصير الإنسان، فحياة المريض مرتبطة بمدى نجاح التشخيص وملاءمة العلاج، إذ يلقي المريض نفسه بين يدي الطبيب مستسلما، واثقا، لا يناقش، مطبقا كل الأوامر، فتصبح مسؤولية الطبيب حينئذ أعظم.

إن تأمل الطب علما وممارسة، ثم فحص الوضعية النفسية والاجتماعية للطبيب والمريض في ظل التطور الهائل الذي لحق بهذا العلم وبالمجتمع ككل، يجعلنا لا نتردد في الحديث حول

---

(2) المرجع السابق، ص539.

(3) أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**، دار النهضة العربية، ب ط، بيروت، 1993، ص121.

(4) المرجع السابق، ص123.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

غياب اليقين في الطب، بل أن نقر بهذه الحقيقة، إذا ما أردنا أن نتجنب بعض آثار هذه المشكلة، فنبحث وبشكل دائم عن التصحيح، يقول **رينيه فوكس(F. René)** عنها: "**وهي مسائل ذات طبيعة موقفية وفلسفية، مثلما هي ذات طبيعة معرفية وعملية. ولعل من أهم تلك المسائل، كما يشهد بذلك أجيال من طلبة الطب، هي تعلم الإقرار بالحضور الدائم للشعور بعدم التيقن في مجال الطب**"[5].

وما يثبت عدم التيقن الطبي، هو قصور الأسس المعتمدة في التشخيص والعلاج، إذ نجد أنفسنا أمام نظريتين في الطب، الأولى، وتسمى بالنظرية الآلية أو الميكانيكية، يقول عنها **كينو**(L. Kuénot)*: "**إن هذه النظرية الآلية هي في جوهرها مناهضة للغائية، وباطنها الميتافيزيقي، هو (الواحدية الهايكلية) التي هي فلسفة مادية للوحدة، وترى أن الانسان الذي هو قسم من الأشياء المتطورة يستطيع بعقله أن يفهم العالم فهما شاملا**"[6]، حيث تعتقد أن الإنسان مجرد جسم، يتألف من أعضاء وأنسجة وشرايين، وأن لكل عضو وظيفة محددة، ومستقلة عن باقي وظائف الأعضاء المتبقية، لذلك على المعالج أن يهتم فقط بالعضو المريض. إذ بمقدوره معرفة الكيفية التي يعمل بها العضو، مما يجعل أمر تفسيره أمرا ممكنا، على أساس أن الظواهر الحية تخضع لمبدإ الحتمية، وهو نفس المبدإ الذي تخضع له الظواهر الجامدة، يقول **كلود برنارد**(Claude Bernard)**: "**إلا أنه يجب أن تكون هناك حتمية في الظواهر الحيوية تتحكم فيها، وإلا كانت قوة عمياء لا قانون لها وهذا أمر غير ممكن. ومن هنا ينتج أن ظواهر الحياة ليس لها قوانينها الخاصة بها**"[7].

إن الطبيب، ووفقا لهذه النظرية، لا يبالي بشعور المريض أثناء العلاج، إذ لا يهتم بالآلام التي قد يحس بها، حيث يغفل تماما أنه أمام إنسان يحس ويشعر، وكل ما يهمه فقط هو وصف الدواء أو إجراء العملية الجراحية، إنه يستبعد تماما ذاتية المريض أثناء عمله التشخيصي والعلاجي[8].

---

[5] رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**، ترجمة: عاطف أحمد، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت العدد102، أكتوبر 2000، ص150.

* ل كينو(1886- 1951)، عالم بيولوجي فرنسي.

[6] L. Kuénot : **Invention et Finalité en Biologie**, Flammarion, Paris ,1941 .P.41

** كلود برنارد، طبيبي فرنسي، من أنصار التفسير الحتمي في البيولوجيا، يعتبر أول من أدخل المنهج التجريبي في الطب.

[7] Claude Bernard : **Introduction à L'étude de La médecine Expérimentale**, Garnier-Flammarion, Paris,1966,P109

[8] أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**، (مرجع سابق)، ص132.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

واضح أن النظرية الآلية لا يمكن لها أن تصمد أمام النقد الإبستمولوجي، فهي تتناقض وطبيعة الإنسان عندما اعتبرته مجرد آلة جامدة ميتة، في حين أنه يتمتع بالحياة والشعور، ثم إنها أهملت ظروف الجسم ككل، فقد يُحدث الدواء أعراضا مضرة بوظائف الأعضاء الأخرى، كما أن الحالة المرضية قد تكون متعلقة بحالات المريض النفسية، وظروفه الاجتماعية. مما يجعل إهمال هذه الحقيقة من طرف الطبيب يبعده عن معرفة علة المرض، يقول **ماكس بيروتز** *** (Max Perutz): "**ولقد حولت خطوات التقدم الواسعة، التي تحققت في السنوات الخمسين الأخيرة الماضية، تعليم الطب نحو التأكيد على الأساليب العلمية للتشخيص والمعالجة. وفي بعض الأحيان نحو إهمال العلاقة الشخصية بين الطبيب والمريض التي كانت موجودة من قبل، فكانت النتيجة أن الأطباء يمكن أن يشخصوا المرض، ولكنهم يفشلون في اكتشاف السبب الذي لا يمكن أن تكشف عنه سوى معرفة المريض الشخصية**"[9]، ثم إن تخفيف الآلام عن المرضى هو من أولويات الطبيب، وهذا ما يسعى إليه بالفعل الطب، إذ نجد أثناء العمليات الجراحية يخضع المريض لعمليات التخدير الجزئية أو الكلية، من أجل أن يتجنب الشعور بالألم .

أما الثانية، وتسمى بالنظرية التكاملية، فيتزعمها الطبيب الفيلسوف **ليدرمان** (E.K. Ledermann)، لا تعتبر الإنسان مجرد آلة معقدة، كما ترفض أن تكون وظائف أعضاء جسمه مستقلة عن بعضها البعض، بل إن الجسم يعمل في تناسق وانسجام، ذلك أن أعضاءه مرتبطة ارتباطا غائيا، من أجل تحقيق غاية واحدة هي استمرار الحياة، فالتنفس مثلا تحكمه منبهات كيماوية بفعل كميات من الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون، كما تتحكم في ظاهرة التنفس منبهات عصبية تنشأ عن المنبه التائه، الذي ينظم عمق التنفس، وهذه المنبهات متكاملة ومرتبطة داخليا، كما أن التنفس يتأثر بالحالات النفسية للإنسان[10]، وتدعو هذه النظرية إلى تخفيف الآلام عن المريض، إنها تتناول جسم المريض الحي ككل بالدراسة، على أساس أن الوظائف الحيوية تعمل مع بعض، مما يجعل الطبيب أثناء التشخيص لا يهتم بالعضو المريض فقط، بل ينظر إلى الجسم ككل، واضعا في اعتباره أن الواقعة النفسية كما تؤثر في الواقعة الجسمية، فإنها تتأثر بهذه الأخيرة أيضا.

*** ماكس بيروتز، ولد عام1975، عالم كيمياء ألماني، اكتشف بنية ووظيفة خضاب الدم(الهيموغلوبين)، فتحصل نتيجة ذلك على جائزة نوبل عام 1962.

[9] ماكس بيروتز، **ضرورة العلم**، ترجمة وائل أتاسي وبسام معصراني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة العدد 245، الكويت، 1999. ص89.

[10] أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، في **فلسفة الطب**، (مرجع سابق)، ص135.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

إن هذه النظرية، وإن تجاوزت نقائص الأولى، إلا أنها تبقى قاصرة، كونها لا تهتم بمحيطه الاجتماعي، مما يجعل تحقيق اليقين المطلوب في الطب معلقا، لذلك لا بد من نظرية ثالثة، تضع في اعتبارها ظروف المريض المحيطة به، على أساس أن الجوانب العضوية والنفسية والاجتماعية متفاعلة فيما بينها، والإحاطة بها تعين الطبيب على النجاح في عمله. فتخفف الآلام التي يشعر بها المريض، أو تزيلها، يقول **ألكسيس كاريل**[****]: "**ففي الفسيولوجيا، والصحة، والطب كما في دراسة التعليم والاقتصاد السياسي والاجتماعي انهمك العلماء انهماكا شديدا في النواحي العضوية والأخلاط والجانب العقلي للإنسان، ولكنهم لم يقنوا أي قدر كبير من الاهتمام لتكوينه العقلي المؤثر، وحياته الداخلية، وأخلاقه، ومطالبه الدينية، والعلاقات الوثيقة العامة بين وجوه النشاط العضوي والفسيولوجي، والعلاقات الوثيقة بين الفرد وبيئته العقلية والروحية، فلا مناص إذن من إحداث تغيير أساسي**"[11].

هذا وقد تنبهت أغلب المدارس الطبية في الولايات الأمريكية المتحدة لذلك، فأصبحت تعتمد على المبحث البيئي والمسمى بالأخلاق الحيوية (Bioéthiques)، بغية إيجاد تكامل بين الطب والعلوم الاجتماعية[12]، وقد ظهر مصطلح الأخلاق الحيوية مع نهاية الستينات من القرن العشرين، نتيجة مشاكل نجمت عن التطورات العلمية والتكنولوجية، كالإجهاض والعلاج الجيني وإحلال الأعضاء أي زرع الأعضاء والأعضاء الاصطناعية والموت الرحيم[13]، لذلك فإن القادرين على فهم المريض، هم فقط أولئك الذين يعرفونه كأجزاء ووحدة من جميع جوانبه التشريحية والفسيولوجية والعقلية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية.

ومن أسباب عدم التيقن الطبي، جهلنا التام بطبيعة الحياة، فالطب المعاصر يثبت أننا نكاد لا نعرف شيئا عن ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والأعضاء ووجوه النشاط العقلي الروحي، فنحن نجهل الأسباب التي تحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض[14]، وهذا ما يجعل مشكلة المرض ما زالت بعيدة عن الحل، على الرغم من كل هذه الانتصارات الطبية الباهرة التي نشاهدها اليوم، يقول **ألكسيس كاريل**: "**وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون**

[****] ألكسيس كاريل (1873- 1944)،طبيب جراح فرنسي، نال جائزة نوبل عام 1912، من أشهر كتبه: " الإنسان ذلك المجهول"

[11] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة: شفيق أسعد جميل، مكتبة المعارف، ط3، بيروت، 1980، ص ص 57- 58.

[12] رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**، (مرجع سابق)، ص140.

[13] المرجع السابق، ص144.

[14] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، (مرجع سابق)، ص18.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محددة في دنيانا ما زالت غير معروفة".[15] فرغم تطور علمي الطب والأحياء، إلا أننا لا نزال عاجزين عن الإحاطة بحقيقة جسم الإنسان الحي، مما يجعل كل اكتشاف جديد لطريق علاج أو دواء، أمرا معرضا للتفنيد، ما دام سر حركة الجسم ليس في متناول فهمنا، فالحياة تتجاوز حدود المكان والزمان، فلا يبقى أمامنا إلا أن نعمل بنصيحة **نيلز بور******* **(N.Bohr)** التي تنص على: "**وفي هذه الحالة فإن وجود الحياة يجب أن يعتبر حادثا أوليا لا سبيل إلى تفسيره. أي يؤخذ كنقطة انطلاق في البيولوجيا، تماما مثل ما أن كوانتوم العمل الذي يظهر كعنصر لا معقول في الميكانيكا الكلاسيكية**"[16] .

ثم إن علم الطب، وفي غياب معرفة كاملة بحقيقة هذا الكائن الحي، يصبح سيره مترددا، إذ تجده دائما يراجع خطواته، فإن تقدم خطوة تراجع خطوات إلى الوراء، فتنقص الموضوعية فيه، ولا يبقى إلا الاعتماد على موهبة المعالج، وخير دليل على ذلك بقاء الكثير من الأمراض مجهولة العلل، واكتشاف بعض العلاجات في ظروف غير ملائمة، توقفت على التكوين النفسي والعقلي والعلمي للطبيب، ومثال ذلك ما حدث مع **باستور** واكتشافه، يقول **ألكسيس كاريل**: "**ومن الواضح أن العلم لا يتبع أية خطة علمية، وإنما يتطور اعتباطا، ويتوقف تقدمه على الظروف العرضية، كولادة رجال يتمتعون بالنبوغ، وتكوين عقولهم والاتجاه الذي يتخذه حب استطلاعهم**".[17]

وما يجعل بلوغ اليقين في الطب بعيد المنال أيضا، هو فكرة التخصص، ذلك أن وظائف أعضاء الجسم تعمل في انسجام وتكامل، بل إن بقاء الإنسان حيا متوقف على هذا التفاعل التكاملي، ثم إن هذا الجانب الجسمي من شخصيته، مرتبط بشكل وثيق بجوانبه الأخرى، كالنفسية والاجتماعية والميتافيزيقية، فإذا ما تخصص طبيب في وظيفة عضو ما، وغابت عنه حقيقة باقي الأعضاء، كان تشخيصه، ثم علاجه، ناقصا، ويزداد هذا القصور بإهمال آثار الجوانب النفسية والاجتماعية والميتافيزيقية على المريض، فالطب يشكل حلقة متكاملة لا يجوز تجزئتها[18]، مثله كمثل الكون الذي هو حلقة متصلة أيضا، لا يقف على حقيقته إلا

---

(15) المرجع السابق، ص17.

***** نيلز بور(1885- 1962)، فيزيائي دنماركي، نال جائزة نوبل سنة1922، وضع أنموذجا للذرة وطور نظرية الكم، من مؤلفاته:" الفيزياء الذرية والمعرفة البشرية".

(16) F.Jacob : **La logique Du vivant** , Gallimard, Paris. 1970,P.265.

(17) ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**،(مرجع سابق)، ص37.

(18) مجموعة من المؤلفين،**الموسوعة الطبية الميسرة (ميراك- التشخيص والمعالجة)** ج1، ترجمة حسان أحمد قمحية، تقديم مفيد جوخدار، المركز التقني المعاصر- دهر ابن النفيس،ط1، دمشق،1995، المقدمة.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

من أحاط بجميع أجزاء هذه الحلقة، يقول **ألكسيس كاريل**: "**وكذلك فإن الإفراط في تخصص الأطباء يسبب ضررا أكثر، ذلك لأن الطب قد قسم الإنسان المريض إلى أجزاء صغيرة لكل جزء منها أخصائي. فحينما يبدأ أحد الأطباء حياته العملية بالتخصص في دراسة عضو صغير في الجسم، فإن معلوماته عن بقية أجزاء الجسم تصبح أولية حتى يصبح عاجزا عن فهم هذه الأجزاء بما فيها العضو الذي تخصص فيه**".[19]

ثم إن محاولة فهم الإنسان من خلال تشريح جثته وهو ميت، لن تملك معرفته الناجمة عن هذا الفعل أي قيمة يقينية، ومرد ذلك الاختلاف الكبير الحاصل بين تركيبة ووظيفة الجسم الحي، ومكونات الجسم الميت الذي فقد الوظيفة بفقدان الحياة، والذي لن يلبث أن ينحل، فهذه المحاولة قد تضلل أكثر مما تنير الطريق، يقول **ألكسيس كاريل**: "**ليس في استطاعة الإنسان أن يفهم الكائن الحي بدراسة جسم ميت لأن أنسجة الجثة الهامدة تكون قد جردت من الدم الذي يدور فيها كذا من وظائفها. وحقيقة الأمر أن العضو الذي يفصل من وسيطه المغذي يعتبر لا وجود له على الإطلاق**".[20]

ومن جهة أخرى، فإن انحراف البحث الطبي عن مساره، وربط هذا المجال الحيوي بالتجارة، تحت ضغط شيوع الفكر المادي، تحول بموجبه كثير من الأطباء إلى تجار، همهم الأول جمع المال على حساب صحة المريض، فلم يعد التشخيص الجيد والعلاج الناجح هدفا، فأصبح المريض سلعة، تخضع إلى قوانين السوق، فترتبت عن ذلك مشاكل صحية وأخلاقية واجتماعية جمة، فكثرت الأخطاء الطبية، وظهرت عيادات الإجهاض، وانتشر بيع الأعضاء، فلم يعد هناك حديث عن مدى اليقين في التشخيص أو العلاج، يقول **رينيه فوكس**: "**حيث إن التغيرات في العلوم الطبية، والتكنولوجيا والممارسة وما أحاط بها من أحوال اجتماعية وثقافية، ساهمت كلها في ظهور تجليات جديدة لعدم التيقن الطبي، كما أدت من بعض الجوانب إلى زيادة أو تعقيد أنماط قديمة من عدم التيقن**".[21]

وتعتبر الثورة البيولوجية وما نجم عنها من أسباب عدم التيقن الطبي، فرغم اكتشاف البنية ثنائية الحلزون ذاتية الاكتمال لل A.D.N أو ما يسمى بالحامض الريبي المنقوص الأوكسجين، ثم ظهور البيولوجيا الخلوية والجزيئية الجديدة، إلا أن هذه التطورات لا تكشف لا زمان ولا مدى تقدم الطب، بل لا يوجد ما يؤكد أن ذلك سيحدث فعلا، خاصة وأن أمراضا معدية قديمة بدأت في الظهور من جديد، يقول **رينيه فوكس**: "**فاختبارات الوراثة**

---

[19] ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، (مرجع سابق)، ص61.

[20] المرجع السابق، ص87.

[21] رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**، (مرجع سابق)، ص150.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

الجزيئية ما زالت في طفولتها، ولم تثبت أي من محاولات العلاج بالهندسة الوراثية نجاحها بعد، وثمة هوة غير قابلة للعبور قائمة بين المعارف الجزيئية والوراثية التي تحققت، وبين المستوى الطائفي والباثوفسيولوجي (علم اختلال وظائف الأعضاء) الذي يتعامل معه الطب الإكلينيكي. كذلك فإن ظهور أمراض معدية معينة وعودة أقدمها وهي العملية التي أصبحت لافتة منذ ظهور وانتشار مرض الإيدز، شكل مصدرا رئيسا آخر لعدم التيقن الطبي من الطرازين القديم والجديد معا".[22]

ثم إنه كلما زادت دقة وسائل التشخيص والعلاج، أصبحت أكثر خطورة، إذ ترتب عنها آثار جانبية خطيرة جدا، لم يتوقعها الأطباء، كما لم يتمكنوا من تجنبها، غدا مصدرا آخر من مصادر عدم التيقن الطبي[23].

هذا بالإضافة إلى أن هناك من يشكك في التقارير الطبية التي ترد معلنة عن أدلة تزعم أن الطب المعاصر في أزهى أوقاته، كونها لم تتساءل حول مصداقية هذه التقارير، ومن هو الذي يملك فعلا الحق في الحكم على أدلتها بأنها كافية، وما هي أفضل السبل لفهم ووصف الحكم الإكلينيكي السليم، ولعل الجدل الأخير الذي وقع حول مرض أنفلونزا الخنازير وعلاجه خير دليل على ذلك، يقول **رينيه فوكس**: **"والطب المبني على الأدلة وما يدور حاليا من جدال حول قيمته وحدوده إنما يشير إلى حالة عدم التيقن المعرفي التي تسود أجواء الطب المعاصر".**[24]

ثم إن الهندسة الوراثية التي تهتم بدراسة التركيب الوراثي للكائنات الحية بغية الوقوف على القوانين التي تتحكم في الصفات الوراثية، وذلك من أجل تعديلها أو إصلاح عيوبها، وهذا ما يسمى بالجينوم البشري[25]، لا تزال في مهدها، تجهل ماهية الكائن الحي، ومتعثرة في تقدم بحثها، فإن وصلت إلى بعض النتائج القليلة جدا، فإنها تكون قد أهدرت الكثير من حياة بعض الكائنات موضع التجربة، والأكثر من الوقت والمال، بل وأفرزت صراعا مع الدين والأخلاق، مما يجعل هذه الهندسة بعيدة عن اليقين، جعلت **ماري ويكسلر**، وهي واحدة من علمائها تقر قائلة: **"وعلى الرغم من أنني أحس بأن هذه الفجوة، التي لا نملك إزاءها سوى**

---

[22] المرجع السابق، ص ص 150- 151.

[23] المرجع السابق، ص 151.

[24] المرجع السابق، نفس الموضع.

[25] فتيحة زرداوي، **وقع تطور العلوم الطبية على الأخلاق**، ضمن كتاب: **الفلسفة وقضايا العصر**، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، ط1، الجزائر، 2008.ص 187.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

التنبؤ لا الوقاية، ستكون في غاية الصعوبة – إذ سترهق نظما طبية واجتماعية واقتصادية تقع بالفعل تحت ضغط خطير من قبل أن يظهر مشروع الجينوم البشري- "[26].

وما يثبت عدم التيقن الطبي هو أنه، ورغم تطور الطب إلا أنه لم يجد أدوية نوعية لمعظم الفيروسات[27]، وإن وجد لقحات نوعية لبعضها فقط. وها هي الموسوعة الطبية الميسرة تقر بذلك: "**غالبا ما تستخدم العوامل المضادة للجراثيم من دون استطباب حقيقي مشروع Valid Indication (كما هي الحال في الأمراض الحموية)، تُستخدم بشكل غير مناسب، فلا تعطي سوى نتائج سريرية واهية. ومن أكثر هذه الأخطاء معالجة الحمى، التي قد لا تكون بالضرورة ناجمة عن خمج جرثومي**".[28]

وتكمن أسباب الخطر في الإصابة بالفيروسات في كونها أكثر الكائنات الحية تعرضا لحدوث الطفرات لبساطتها، مما يجعل تكون أنواع جديدة لها لدى المصاب أمرا قائما، ثم إنها تتميز بسرعة التكاثر لسهولة نسخ A.D.N أو A.R.N المتمم، فيزداد عدد الفيروسات، ثم إنه عند الإصابة بعدة أنواع من الفيروسات، فإنه ينشأ عن ذلك تراكيب وراثية جديدة، فتظهر سلالات فيروسية جديدة، فيزداد الخطر لدى المصاب، كما أن معظم الفيروسات تضعف المناعة وقد تعطلها، مثل فيروسات الإيدز، كما أن بعضها يسرع في الانقسام الخلوي، فتحدث الأورام، مثل فيروسات الثآليل، ثم إنها تستطيع اختراق الحاجز المشيمي لدى الحامل، فيتأثر الجنين سلبا، وهناك آثار أخرى خطيرة للفيروسات[29].

الخاتمة:

نستطيع أن نقول في الأخير، إنه رغم تطور الطب، إلا أنه لا يزال طفلا ينمو متعلما، يسلك طريقة المحاولة والخطإ، وإنه لعمري مسلك خطير، لأنه يحاول في الإنسان، وكل خطإ قد يقتله، لذلك كان لا بد أن يقر الأطباء بهذه الحقيقة، فلا يقين متحقق، مما يستوجب البحث عن مصادر أخرى للمعرفة الطبية، ثم لا بد أن يكون الطبيب فاضلا، فيكون فيلسوفا على حد تعبير **جالينوس**.

---

[26] ماري ويكسلر، **الاستبصار والحيطة: ترجيعات من مشروع الجينوم البشري**، ضمن كتاب: **الشفرة الوراثية للإنسان**، تحرير: دانييل كيفلس وليروي هود، ترجمة: أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة، العدد217، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، يناير 1997، ص266.

[27] محي الدين طالو العلبي، **الإيدز والأمراض الجنسية**، دار الهدى، ط2، عين مليلة، الجزائر، 1989، ص40.

[28] مجموعة من المؤلفين، **الموسوعة الطبية الميسرة (ميراك- التشخيص والمعالجة)** ج1، (مرجع سابق)، ص49.

[29] محي الدين طالو العلبي، **الإيدز والأمراض الجنسية**، (مرجع سابق)، ص ص 39- 40.

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

المصادر والمراجع بالعربية:

1/ أحمد محمود صبحي ومحمود فهمي زيدان، **في فلسفة الطب**، دار النهضة العربية، ب ط، بيروت، 1993.

2/ ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة: شفيق أسعد جميل، مكتبة المعارف، ط3، بيروت، 1980.

3/ رينيه. س. فوكس، **التعليم الطبي والأخلاق الحيوية**، ترجمة: عاطف أحمد، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت العدد102، أكتوبر 2000.

4/ فتيحة زرداوي، **وقع تطور العلوم الطبية على الأخلاق**، ضمن كتاب: **الفلسفة وقضايا العصر**، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، ط1، الجزائر، 2008.

5/ ماري ويكسلر، **الاستبصار والحيطة: ترجيمات من مشروع الجينوم البشري**، ضمن كتاب: **الشفرة الوراثية للإنسان**، تحرير: دانييل كيفلس وليروي هود، ترجمة: أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة، العدد217، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، يناير 1997.

6/ ماكس بيروتز، **ضرورة العلم**، ترجمة وائل أتاسي وبسام معصراني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة العدد 245، الكويت، 1999.

7/ محمد سليم صالح وعبدالرحيم عشير، **علم حياة الانسان**، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1986.

8/ محي الدين طالو العلبي، **الإيدز والأمراض الجنسية**، دار الهدى، ط2، عين مليلة، الجزائر، 1989.

9/ مجموعة من المؤلفين، **الموسوعة الطبية الميسرة (ميراك- التشخيص والمعالجة)** ج1، ترجمة حسان أحمد قمحية، تقديم منير جوخدار، المركز التقني المعاصر- دهر ابن النفيس، ط1، دمشق، 1995.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1/ Claude Bernard : **Introduction à L'étude de La médecine Expérimentale**, Garnier-Flammarion, Paris. 1966.

2/ F. Jacob : **La logique Du vivant** , Gallimard, Paris. 1970.

3/ L. Kuénot : **Invention et Finalité en Biologie**, Flammarion , Paris ,1941 .

عدم التيقن الطبي من منظور فلسفة الطب
بوهلال ، عبد الحليم
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 21/11/2024 User: @ Al Manhal Demo Library
Copyright © Al Baseera Center for Educational Studies and Consultations. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/24950